عقدة اللون عند أغربة العرب في العصر الجاهلي

أ. م. د. حيدر مزهر عسكر/ كلية التربية/ جامعة واسط
الباحثة سارة رياض عبد الكريم/ كلية التربية/ جامعة واسط

الخلاصة

يهدف البحث الى بيان ظاهرة عقدة اللون وأثرها لدى أغربة العرب بأعتبار إن هذه العقدة هي أقسى أنواع العقد التي عانت منها هذه الفئة، وكيف تعاملت هذه الطائفة مع هذه العقدة ؟ وماهي صور ومظاهر هذه العقدة باعتبارها ظاهرة أنسانية عانى منها أصحابها ، إذ شكلت اضطرابات في شخصياتهم من خلال أحساسهم بأنهم جماعة منبوذة ، كذلك فقد حاول البحث إن يبين أسباب عقدة اللون وما هي الآثار التي تخلفها في نفس من يقع تحت تأثيرها ، وما هي الطرق التي سلكها الأغربة للتغلب على هذه العقدة ، كذلك حاول البحث إن يبين الأثر الذي تركته عقدة اللون سواء كان الأثر سلبيا أم ايجابيا وما هي انعكاساته على الشخص الغرابي .

Summary Research:

The aim search to explain the colour in flunence Arab regarded this problems that violent problems to group and how this groups with this problems and what pictures prefence regarded the human which suffering the problems and how the society war them and tried to explaian the reasans of colours problem and how to in fluce in to human self and which the way then follow to won this problems and how tgey tey to look for the in flunce that left colour problem and how it in flunce positive or negative and what the refle for person.

المقدمة

منذ اللحظات الأولى لولادة الأغربة وهم يعانون حياة العوز والحرمان مادياً ومعنوياً لولادتهم المنافية لناموس القانون العام للقبيلة، التي ليس لهم يد فيها ومع ذلك حالت دون طموحاتهم فاخترط بعضهم السيف وتقمص شبح الموت وارتمى في أحضان الحروب ليدافع عن القبيلة ولينال الخطوة لعلها تضحي راضية عن سواده وصنف أخر ضاق ذرعا بهذه القيم المجحفة التي تنكرت لولادتهم فثاروا عليها في محاولة لإهدار دمها، فاتجهوا للسلب والنهب والصعلكة منفصلين عن القبيلة حانقين عليها ، وصنف ثالث استسلموا لما هم فيه فكانوا لقمة سائغة وغنيمة باردة للأحرار يخدمونهم مقابل الطعام والشراب ، ولكن هؤلاء ايضاً كانت جراحهم لا تندمل ولا تبرأ لأن مبادئ القبيلة وقيمها كانت تسومهم سوء العذاب وهم غير مدركين لجراحهم الداخلية حتى يحاولون علاجها وعاشوا حياة الشظف والفقر ومقارعة الطبيعة جياعاً مقرورون عفاه ملهوفين ضالين فكانت الحرية بالنسبة لهم أضغاث أحلام لأن حلمهم الحقيقي كان لقمة عيش يوفرونها لأبنائهم ولباساً يحميهم الحر والبرد وبما أنه لا يجنح سيفان في غمد واحد الحرية ومتطلبات أسرتهم التي لا عائل لها سواهم إذن كان توفير ما تحتاجه أسرهم هو الحلم الملح أما العبودية فقد اعتادوا عليها.

عقدة اللون عند أغربة العرب في العصر الجاهلي

فقد تولدت لدى هؤلاء العبيد ردود نفسية مستعصية "فعنترة يعاني من عقد اللون وهو في قمة انتصاراته"[١]، عنترة الفارس المغوار صوت القبيلة وحامي حماها والذائد الأول عند خوضها وخفاف بن ندبة الذي اعترف به أبوه منذ ولاته ، ومع ذلك سمي بابن ندبة وندبة أمه فلم يفده اعتراف والده ببنوته ولا ما اشتهر به من " الفروسية والشجاعة والأنفة والدفاع عن النفس"[٢] وإنما بقي سواده شاهداً على عبوديته .

والسليك بن السلكة الذي ضرب صفحاً عن الذوبان والانخراط في القبيلة ، فحاول قطع الوشائج التي تربطه بها ، ففضل التصعلك ليقال له فرض عليه التصعلك ومن فرضه عليه سواده لأنه " ربما كان السواد سبباً مباشراً لتصعلك هذا الشاعر وخروجه على المجتمع" [٣] ، فتكونت لديهم العقد النفسية ، والعقد النفسية تعرف بأنها " مجموعة من الرغبات أو الافكار المكبوتة غير المندمجة مع النظام النفسي للفرد وهي من حيث هي كذلك نتيجة لأحتكاك الإنسان ببيئة خارجية يمتص منها مقومات ضميره اللاشعوري فكرته العليا عن الذات" [٤] فهذه الفئة من الشعراء التفت حولها مسببات العقد النفسية فنسب مغمور مستهجن غير معترف به وسواد يتناوله الأحرار بالغمر واللمز تصرحياً وتلميحاً فكان لابد من ظهور أثر هذه العقد على شخصياتهم ، أما بدفعهم للتحليق في سماوات الكمال والشرف ، أو بالانحطاط نحو ارض من الحقد و الكراهية والدونية فمثلاً عنترة كان " دائم الشعور بعقدة الدونية أو عدم التحرر النفسي"[٥] .

وأن كان هذه الصراع النفسي تخف من مواقف البطولة والانتصارات ولكنها سرعان ما تعود لتقض عليهم مضاجعهم ويظهر هذا في أشعارهم فهم يرون كل شيء في هذا الكون ملوناً بلون يعكس مأساتهم في الحياة حتى "لقد تحكم أثر اللون بنفوس هؤلاء الشعراء وأحاسيسهم مما جعل أشعارهم أصداء خبايا وجدانهم وتجليات وعيهم الجمالي للأشياء من خلال ألوانها فانطبعت بشخصياتهم وامتزاج الذاتي بالموضوعي في عقدة القيم الجمالية التي عبروا عنها"[٦] .

فقد يكون التفوق قد ولدت من رحم عقدة الدونية أو النقص وتغذيت بلبنها مثلما حدث مع عنترة بن شداد فعقدة التفوق ليست " مقابل لعقده الدونية أو الضعة " [٧] ، كما قال د. جميل قاسم فهم يحاولون الخلاص من ربعة العبودية والذل والسواد التي منعتهم من التماشي والذوبان داخل نسيج المجتمع وصنفهم في الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع فلون أسود ونسب مستهجن مغمور وعبودية وفقدان للحرية تكاثرت عليهم فأدمت أرواحهم وألبت عليهم حياتهم ونغمت معيشتهم ، إذ تطورت عقدت الدونية عند عنترة لتتحول إلى عقد تفوق فعنترة الذي افتخر بسمات العبد :

أنا العبد الذي خبرت عنه يلاقي من الكريهة ألف حر[٨]

كل هذا بسبب لون مفروض عليهم ، فعنترة الشاعر الفارس والعاشق النبيل كان لا يجد التقدير من بعض قومه بسبب لونه [٩]وهذا القول ينطبق على الأغربة جميعا الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم فكانوا بسببه يعير بهم آبائهم ونسبوهم إلى طائر الغراب المشؤوم بلونه الأسود فعاشوا حياة الصغار والهوان على هامش المجتمع بسبب لون وصمتهم به الطبيعة حتى تخلى عنهم آبائهم .

ظاهرة اللون احتلت حيزا كبيرا عند عرب الجاهلية فقد كان العرب " يعدون اللون الأسود لون غير محبب" [١٠] ولون من " ألوان الشر والشياطين"[١١] وكانوا يعدونه " علامة على عدم سلامة النسب"[١٢] حيث " إذا قالت العرب : فلان أبيض وفلانه بيضاء فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب"[١٣] وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض وأبن بيضاء ومن سمات جمال المرأة أن تكون بيضاء وهو دليل على شرفها بل كانوا يفخرون بأن سبياهم من النساء البيض[١٤]، فعلام العجب من موقف القبيلة إذن فقد كانوا " طبقة مهانه كذا

وطحونه لأنهم كانوا يذادون بالعنف مرة وباللين مرة أخرى عن أن يكونوا داخل نسيج المجتمع الحي وهكذا عاشوا على هامش هذا المجتمع طبقة فقيرة مهانه كذا ومدموغة في الوقت نفسه بالسواد فهم لا يعترف بهم الا تحت ضغط ثقيل"[١٥] وحاولوا تغيير مجرى حياتهم وتوجيه دفه السفينة نحو شاطىء الكمال والحرية هاربين من نكد السواد الذي يلاحقهم أنى حلوا واتخذوا إلى ذلك سبلاً " أما بوساطة السلوك الاجتماعي المستقيم من علو الهمة وسمو الأخلاق وطيب الأعمال أو بتجريد السيوف أن اقتضت الضرورة ذلك"[١٦] .

ويظهر مما سبق أن القبيلة العربية كانت تهتم بنقاء الجنس أو السلالة حتى ولو كان ذلك على حساب أناس قد يحرمون حقهم الطبيعي في الاعتراف بهم أرضاء لأعراف اجتماعية جائرة وضعت عليهم اقصاص وحواجز مزمنة هذا المجتمع سلبهم وحرمهم أقل حقوقهم " المجتمع الذي صنف قيم أبنائه حسب ألوانهم فخلعهم من إنائه بسبب لونهم الخارج على قوانينه"[١٧]، ولكن هذه المحاولات لم تفلح في قهر روح النزوع نحو المساواة داخلهم فانطلقوا في مواجهة مأساتهم من الواقع وحبذوا عدم الهروب منه إذ " قد يولد الإنسان لأمة سوداء فيظل لونه يلاحقه ويكون عليه سبة"[١٨]، وخير مثال على ذلك عنترة بن شداد ذي اللون الأبنوسي الذي ورثه عن أمه وأخواله " فأجتمع عليه ذلان ذل الأّم وذل اللون الذي ورثه عنها واحس ذلك في أعماقه"[١٩]، فما حال عنترة حين يسال عن أخواله ؟ كيف يكون جوابه ؟ هل يهرب من السؤال ؟ أم يواجه الواقع ؟ أم يخرج عن الجماعة ليصبح صعلوكا وبالرغم من الجوانب السيئة التي اللون الذي دفع به الشعراء الأغربة ولكن عند النظر للجانب الإيجابي لأثرها في شعرهم كانت سببا في تفتق مواهبهم الشعرية فمعلقة عنترة " لنظمها بسبب يتصل بأصل عنترة ولونه"[٢٠] حين عيره أحد قومه بسواده وسواد أمه وأخوته فكان أول ما قاله من الشعر في معلقته التي مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار به بعد توهم(٢١)

،كما أن موقفه مع قيس بن زهير سيد بني عبس حين استبسل عنترة في الدفاع عن قومه [٢٢]في أحدى المعارك مع تميم فثبت له عنتره ثبات الصناديد فلم يصب منهم فكان ذلك في مقتبل حياته فساء ذلك قيس بن زهير فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا أبن السوداء[٢٣]، فغضب عنترة من قولته وعرض به في تصيدته التي ومطلعها :

طال الثواء على رسوم المنزل بين اللحيك وبين ذات الحرمل(٢٤)

وكذلك خفاف الذي كان أكثر شعره في الجاهلية حتى إذ ما جاء الإسلام لم يرو عنه الا بضع أبيات[٢٥]، بالرغم من أنه عاش حتى أدرك خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وربما عاد السبب في ذلك إلى رسالة الإسلام التي دعت إلى إلغاء الفروق الفردية فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن شعره الذي نظمه في الجاهلية كان منافحا عن لونه[٢٦] وليس السبب فقدان كثير من شعره [٢٧] لأنه لو كان هذا هو السبب لكان الأولى بالفقدان شعره الذي نظمه في الجاهلية لبعد المسافة بينه وبين عصر التدوين.

حاول هؤلاء الإغربه التحرر من شرك السواد، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا وخاصة أنه كان وراء إعاقتهم عن تبوء النسب الرفيع وما يستتبعه من فشل لعلاقاتهم بالأخر سواء الانثى أو الذكر وراء عجزهم عن

الوصول لسدة الشعر مع استحقاقهم لذلك فتفجروا حقدا على كل شيء لأنهم غرقوا في بحور ذاتهم فلم يجدوا غضاضة في الحديث عنها كما قال د. عبد الرزاق الخشروم [٢٨] بل تحدثوا عنها ملء السمع والبصر لعلمهم أن محامدهم ومناقبهم تتعدى المظهر الخارجي وأن من عابوهم " إنما يتعرون بمركب نقص خبيث " [٢٩]اتجاهم فتساموا على واقعهم المزري مسلطين عليه أسواط ألسنتهم الحادة لإثبات تفوقهم أولا ثم الانتقاص من شأن الآخر وإضفاء مسحه من الجمال والتميز على ثوبهم الأسود القشيب فقارنوا بين المظهر والجوهر الأسود الخارجي والأبيض الداخلي في مقابل الآخر ذي المظهر الأبيض والجوهر الأسود ، فاللون شاسع بين بشرة بيضاء تحمل تحتها المقت والخبث وأخرى سوداء تحمل الحب والخير في قول عنترة :

تعيرني العدا بسواد جلدي وبيض خصالي تمحو السواد
وردت الحرب والأبطال حولي تهز الحفها السمر الصعادا (٣٠)

كما يقول:

شبيه الليل لوني غير أني بفعلي من بياض الصبح أسنى
جوادي نسبتي وأبي وأمي حسامي والسنان إذا انتسبا (٣١)

فالاغربة دائما ما يحملون أسلحتهم للدفاع عن ألوانهم السوداء فجعلوا سيوفهم بيضاء ، لتؤدي دور الفعال الحميدة التي تساهم بلونها أبيض في محو كل أثر لسوادهم وانغراس الإخلاق في عنترة انغراس غريزي وتوحد به أما التصاق اللون به فهو التصاق مشابهة فلونه يشبه لون الليل الأسود – مجرد وجه من وجوه التشابه – أما فعاله فهي أسنى من بياض الصبح بكل ما يحمل من معاني .

كما يفخر الشاعر بأمه ويعتزم بأن يضع لنفسه دويا يشغل الآذان ويعمي الإبصار عن رؤية لونه ، وقد عبر عن ذلك بقوله يقول:

ما ساءني لوني أو اسم زبيبة إذ قصرت عن همتي أعدائي
فلئن بقيت لأصنعن عجائبا ولأ بكمن بلاغة الفصحاء (٣٢)

فهو يواجه مشكلته بإصرار على حلّها ولكن يبدو من كثرة ذكره لهذه المشكلة أنه كان شديد إلادراك لويلاتها وجرائرها، وأنها كانت حقا تنغص عليه حياته فهو كثير المعاودة لها والمداومة على ذكرها حتى أثناء فخره يقول:

أنا العبد الذي خبرت عنه وقد عاينتني فدعي السماعا
ولو ارسلت رمحي مع جبان لكان بهيبتي يلغي السباعا(٣٣)

فهو يفخر بشجاعته حتى أنه رمحه التصقت به الشجاعة من فيض شجاعة عنترة وطول معاشرته له حتى لو أمسكه الجبان فأنه يظل متنكرا لهيبة صاحبه الأول ولكن تبقى المشكلة أنا العبد افتخار يحمل دلالات فريدة حيث يظن العبودية بجميل الخصال وكريمها وفصارت ممدوحه وليست مذله فيبدأ حديثة بقوله " أنا العبد" ولكن أنا العبد هنا ما تحمل من معاني الاعتزاز والكرامة والتعالي فتظهر فيها الانا متعاليه متنكرة بالرغم من

اقترانها بكلمة العبد التي تدل على الدنو، فهو يفخر بكونه عبدا مع توفر هذه الصفات الطبية التي لا يمتلكها السادة الأحرار لكنه فخر مبطن بمرارة خفيه وقهر يحاول مواراتها وراء كريم الصفات حتى لا يطلع عليها غيره ثم هو يفتخر بأمه واخواله يقول عنترة :

وأنا المجرب في المواقف كلها من آل عبس منصبي ومعالي
منهم أبي شداد أكرم والد والأم من حام فهو أخوالي(٣٤)

يتضح مما سبق : أن الأغربة السود قد انشغلوا بمسألة اللون لأنهم " كانوا دائما يعيرون به واقترن حديثهم عن السود بالدمامة لأن السواد من الالوان المستهجنة عند العرب وقد حاول هؤلاء الشعراء الدفاع عن هاتين المسألتين مسألة اللون والدمامة بالاعتزاز حينا ،وبالإحالة على الجوهر حينا آخر وبلغت الانظار إلى بعض الأشياء التي يكون فيها السواد مجال فخر لا ازدراء غير أن دفاعهم كان يغص في كثير من الاحيان بالمرارة لأنهم وجدوا في مجتمع يحتفل باللون احتفالا شديدا ويتخذ من الشكل اساسا يقيس به أقدار الناس " [٣٥]

كما كان اللون عائقا أمام عنترة يحول دون الوصول إلى عبله والزواج منها إذ لم يرفض ذوي عبلة وحدهم سواد عنترة ، بل نجد عبلة نفسها ترفض هذا السواد إذ يقول عنترة :

دعني أجد إلى العلياء في الطلب وابلغ الغاية القصوى من الرتب
لعل عبلة تضحي وهي راضية على سوادي وتمحو صورة الغضب(٣٦)

وقد تشاءم أغربة العرب من لون الغراب مثلهم مثل العامة لاعتقادهم أن سواده هو سبب تشتيت شملهم ولم لا ؟ وهم أكثر من عانى منه و وقد عبر عن ذلك عنترة بقوله :

يا عبل كم تنعق غربان الغلا قد ملأ قلبي في الدجى سماعها(٣٧)

وموقف عنترة من وضعه ولونه موقف فيه كبرياء الرجولة والإيمان بحقيقة إنسانية سامية لهذا كان يرد على التعويض واللمز بمزيد من الاعتزاز والفخر بهذا اللون منطلقا من فردية متكاملة وموقف فيه رفض التقاليد التي تجعل ابن الأمة الأسود اللون دون غيره من الناس وكانت هذه الفردية تحمل خلال القبيلة كما تحمل شوقا إلى وضع إنساني ارفع يقاس المرء فيه بمزايا وصفاته لا نسبه ولونه يقول عنترة :

يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر(٣٨)

فاللون الأسود رمز خيبة الأمل في المجتمع الجاهلي " فقد نعت العرب الجاهلي كل شيء بغضته نفوسهم بلون الأسود فعبروا عن الحقد بأنه أسود"[٣٩] ثم يفتخر بسواده ليوصله أيضا إلى نسل جده حام بن نوح عليهما السلام

وإن عابت سوادي فهو فخري لأمي فارس من نسل حام (٤٠)
ولي قلب أشد من الرواسي وذكري مثل عرف المسك نام

فهو مليء بالفخر بهذا السواد لانتسابه إلى حام بن نوح عليهما السلام وفي محاولة منه لفتح أعينهم على الحقيقة التي لا يريدون الاعتراف بها وهي أن السواد ومظهر من مظاهر القدسية وليس الازدراء والسخرية،

فهو يرى في سواده مثار فخر غير جالب للعار والخزي مادام صاحبه يمتاز بالفروسية والنبل والغيرة على كل ما يمس العرض والشرف :

إنا الهجين عنترة كل امرئ يحمي حره
اسوده وأحمره والواردات مستفرة (٤١)

وهو يطالب بمكانته المستحقة المستلبة :

وقد طلبت من العلياء منزلة بصارمي لا بأمي ولا بأبي (٤٢)

فهؤلاء الجهال كما يصفهم لم يقدروا سواده حق قدره فأسلموه إلى حالات من الاغتراب النفسي والرغبة في الانتقال والتشفي من الأحرار جميعا يقول:

فشككت بالروح والاصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم (٤٣)

فعنترة هنا " وكأنه يقرر مبدأ المساواة الذي يفتقده وهو عندما يصور البطل الذي صرعه وقد فارت دماؤه وأصبح لحماً للسباع ، فإنما يكشف عن نوع من التشفي من الأحرار جميعا في صورة هذا الرجل الكريم الذي تركه صريعاً"[٤٤]، وهو دائما ما يذكر عبوديته وسواده حتى بعد تحرره لأنه تحرر من العبودية ، لكنه لم يتحرر بعد من لونه الأسود :

أنا العبد الذي بديار عبس ربيا بعزة النفس لأبه
سلوا النعمان عني يوم جاءت فوارس عصبة النار لحميه(٤٥)

أما بالنسبة للشاعر الغرابي خفاف بن ندبة فهو يعد ثاني من أطلق عليهم أسم اغربة العرب ، فقد قلّت الإشارات إلى سواده في شعره ويبدو أن السبب في ذلك تحرر خفاف منذ صغره واعترف ابيه به منذ ولادته " ويبدو أن قبيلته قد اعترفت به وبنسبه إلى أبيه لا ننا لم نجد نزعة التمرد واضحة في شعره بل وجدنا الاعتزاز بقبيلته وابيه"[٤٦]، ولكن يبدو أن هذا ليس السبب الوحيد لقلة أشعاره التي تدور حول غرابيته ، فربما كان خفاف يتلاشى الحديث عن لونه في شعره لعلمه بمدى سريان الشعر بين قبائل العرب وأن لونه من الأشياء التي كان على علم بأنها تثنيه وكأنه يجد غضاضة في الحديث عنه ومع ذلك كانت هذه العقدة تلح عليه احيانا وانها تركت في نفسه أثرا ليس كما قال د. نوري حمود القيسي أنه" مع أنه عد في أغربة العرب وأن لونه كان أسود حالكا إلا أن ذلك لم يترك في نفسه أثرا أو كما يسميها علماء النفس " عقدة" كما ترك في نفس عنترة والذي يبدو أن خفاف وغيره من الاغربة الذين لم يتحدثوا عن ظاهرة كما يجدون غضاضه في الحديث عنها لأنها كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلي في هذه الفترة"[٤٧]، فقد كان يهرب من الفكرة ولكنها كانت تعاوده أحيانا بدليل قوله في مهاجاته لابن عمه العباس:

كلانا يسوده قومه على ذك النسب المظلم(٤٨)

أما عن السليك بن السلكة فهو ثالث الثلاثة الأغربة فقد ورد ذكر لونه في حديثه عن خالاته اللاتي شيب رأس رؤيتهن بين الرجال لكونهن إماء فهن حق مباح للجميع:

أشاب الرأس أني كل يوم أرى لي خالة وسط الرجال
يشق علي أن يلقين ضيماً ويعجز عن تخليصهن مالي(٤٩)

والخال هنا كل أمة سوداء لأن أمه كانت سوداء، ويذكر أثر سواده على نظرة المرأة له :

ألا عبست علي فصار متني واعجبها ذو اللمم الطوال
فإني يا ابنة الأقوام أربي على فعل الوضي من الرجال
فلا تصلي بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوك ضروب بنصل السيف هامات الرجال (٥٠)

لوحظ غلبة اللون الأسود على أشعار الإغربة ويبدو أن السبب في ذلك هو النظرة السوداوية التشاؤمية القائمة في أعماقهم والتي تسللت إليهم من جراء معاناتهم الصعبة لكنهم في لحظات الشجن التي تلح عليهم فيها ذكرى معاناتهم من لونهم الأسود كانوا يحاولون الانتصار له فيعطونه دلالات القوة والرفعة والسمو فيجعلوه لوناً للمسك ، فالالوان تعكس ذات الشاعر وحالته فكان من المتوقع أن يكره الشعراء الاغربة هذا اللون فيقل دوره في أشعارهم ولمنه كان من أبرز الألوان يقول عنترة :

أن كنت أزمعت الفراق فإنما ذمت ركابكم بليل مظلم
ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم
فيها أثنان واربعون حلوبة سودا كخافيه الغراب الأسحم(٥١)

فبات السواد أو كما أسموهم أغربة العرب يندبون حظوظهم التعيسة التي أسلمتهم لهذا اللون فالاسود في البشرة دليل لعبوديته بقول السليك:

يا صاحبي إلا لاحي بالوادي الا عبيد وأم بين اذواد(٥٢)

فالسليك بستثني من الأحياء العبيد والإماء لضعفهم وعدم استطاعتهم حماية الذمار والذود عن الأموال ولدلالة ذلك على الهوان والضعف وسهولة الغزو، كان الإحساس بسلبية اللون الأسود يدفع الشاعر إلى صيغة ملامح ذاته وفق الصور العامة للأسود في البيئة الاجتماعية التي يعد فيها اخرا مختلفا عرقيا له أن يتجاوز تمثيلاتها مالم يكن له ما يؤهله لتجاوز ذلك التمثيل – النسب العربي – [٥٣] وفق تلك الصورة قباح الوجوه أشبه ما يكون بالحيوانات [٥٤]

أولاد حام فلا نلقى لهم شبها إلا التيوس على اقفائها الشعر

كما نجد أن الشاعر سحيم الذي يشكو قبحه وعزوف النسوة عنه لا لعبوديته بل للونه الأسود الذي يقّر بسلبيته وتفوق الأبيض إذ يقول:

فلو كنت وردا لونه لعشقتني ولكن ربي شائني بسواديا (٥٥)

ففي هذا البيت يقر سحيم بقبح اللون الأسود ، إذ يعده شيئا مسببا في قبحه جعل المرأة تنفر منه كما يقول في موضع أخر:

أتيت نساء الحارثين غدوة بوجه يراه الله غير جميل

فشبهنني كلبا ولست بفوقه ولا دونه أن كان غي قليل (٥٦)

فهؤلاء الشعراء يجدون في عالمهم الشعري وفي حروبهم مخرجا ومتنفسا لنوازع داخليه باطنه ، كل هذا أدى الى شعورهم بالاغتراب أو ما تسميه الباحثة حياة بوعافيه " الاغتراب العنصري أو العرقي"[٥٧] ، لذلك فهم غرباء عن الزمان والمكان يقول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم(٥٨)

فبعض نماذج الإغربة اختاروا الاندماج في الجماعة سبيلا لمواجهة واقعهم وإثبات ذواتهم داخل الكيان الاجتماعي القبلي والنموذج الأخر وهو السليك الذي اختار عالم الصعلكة والسلب والنهب وقتل الأبرياء في سبيل مواجهة مشكلته كما صعب عليهم التفريق بين الموت والحياة فلم يأبهوا الحرائر نزعاتهم ومعاداتهم للمجتمع حتى أنهم " اهتموا اهتماما خاصا بظاهرة الموت فعنترة يمزج بينه وبين الحياة بحيث يصعب التفريق بينهما والسليك يرى في كل شيء الموت"[٥٩] .

يمكن القول إنً " الشعراء السود كانوا على وعي بالهوية الاجتماعية التي يتحركون ضمن حدودها لذا كانوا لا يتحرجون من صفة العبودية التي كانت ملتصقة بهم وأن كانوا احراراً وكأنهم إحسوا أن عبوديتهم لسوادهم كانت بها وصارت هويتهم التي تحيلهم الى تلك الفئة الصامتة المحاطة بالتابوهات الاجتماعية " [٦٠]

فقد كانوا يعيشون عند الناس لا بين الناس وكانوا بلا جذور في مواجهه المجتمع "[٦١] لذا سعوا إلى ايجاد جذور تربطهم بالمجتمع المهيمن وتمنحهم الهوية البيضاء فوجدوا في الشعر الادب العربي الذي ينتسبون اليه والعرق العربي الذي ينبض بدمائهم السوداء وهذا ما صرحوا به للآخر ليعلنوا عن هويتهم العربية التي تجعلهم ندا للآخر كما يقول سحيم:

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له يوم الفخار مقام الاصل والورق(٦٢)

ومما سبق تبين أن الأغربة كانوا ضحية ألوانهم التي كانت نقيض الجمال عند العرب ، فألوانهم اسقطت حقهم بالوجود الحر الذي يسمح لهم بمشاركة المجتمع حقوقه ورغباته ، شغلتهم مشكلة ألوانهم فاكثروا من ذكرها تصريحا وتلميحا فولدت هذه المسألة لدى بعضهم ما يعرف بعقدة النقص مثل السليك والاخرين ما يعرف بعقدة التفوق مثل عنترة فاختلف تأثيرها عليهم من شاعر لأخر ولكنها في النهاية تبقى ذات أثر فعال كما ظهر ذلك من خلال استقصاء اشعارهم كما أن عقدة اللون كانت وراء تغيرات جوهرية في المجتمع العربي فكانت وراء الاستجابة السريعة للإسلام " لأن الإسلام قام بثورة اجتماعية مما كان له الأثر الواضح في نفوس هؤلاء فالإسلام ساوى بين السيد والعبد والناس كلهم لا دم وأدم من تراب لذلك فإن الإسلام انتشل هذه الطبقة من الظلمات إلى النور فسارعوا للإسلام"[٦٣] .

هوامش البحث

[١] - علي ، اللون واثره النفسي في شعر عنتره العبسي ، ص٢٠ .

[٢] - جندي ، خفاف بن ندبة حياته وشعره ، ص١٢

[٣] - حرب ، ديوان الشنفرى ويله ديوان السليك بن سلكه وعمرو بن براق ، ص٧٣

[٤] - صالح ، علم النفس التربوي ،ص٨١٩

[٥] - بوبعيو ، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، ص١٠١

[٦] - خالد زغريت ،جمايات تأثير اللون في شعر الاغربة والجاهلين ،ص٧

[٧] - جميل قاسم ، سيرة عنترة بن شداد الياذه العرب ، ص٤.

[٨] - سلامة ، شرح ديوان عنترة بن شداد ، ١٠٠.

[٩] - أبو ناجي ، شعراء العرب الفرسان في الجاهلية وصدر الاسلام ، ص٦٤ .

[١٠] - الجاحظ ، رسائل الجاحظ ،ج٢ ، ص١٧٨.

[١١] -المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج٢ ، ص ٣٧٩.

[١٢] -ابو الفرج الاصفهاني، الاغاني،ج١٣،ص٦٥.

[١٣] - ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٧، ص١٢٤.

[١٤]- أبن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص٢٥٦.

[١٥] -هيام حماد ، اغربة العرب ، ص٥٩.

[١٦] - بيعو ، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، ص٨٠.

[١٧] - خالد زغريت ، الاساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الاغربة الجاهلين ، ص٧٥.

[١٨] - عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص١٥- ١٦.

[١٩] - ويكلين ، الامومه عند العرب ، ص٤٨.

[٢٠]-طليمات ، تاريخ الادب العربي ، ص١٧٣.

[٢١] -سلامة ، شرح ديوان عنترة بن شداد ،ص١٧٤

[٢٣]-ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج٨ ، ص٣٨٨.

[٢٤] -المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٧١ .

[٢٥] - القيسي ، شعر خفاف بن ندبة ، ص١٣

[٢٦]- جنيدي، خفاف بن ندبة حياته وشعره ، ص٣ .

[٢٧] -المرجع نفسه، ص٦٥

[٢٨] -الغربة في الشعر الجاهلي، ص٩٦.

[٢٩] - القريشي، فارس بني عبس ، ص٥٧.

[٣٠] - سلامة ، ديوان عنترة بن شداد ، ص٥٧.

[٣١] -سعد ، اشعار الموت لدى اغربة العرب ، ص ٢١٦.

[٣٢] -عنتر ، تجليات اللون عند اغربة العرب ، ص ٩.

[٣٣] -سلامة ، عنترة بن شداد ، ص ١١٨.

[٣٤] -ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج١ ، ص٢٤٧ .

[٣٥]- أبو المجد ، شعر العبيد في الجاهلية وصدر الاسلام ، ص١٥٥

[٣٦] - أبو العون ، اللون وابعاده في الشعر الجاهلي ، ص١٥٤

[٣٧] - سعد ، الموت في أشعار اغربة العرب ، ص٦٩.

[٣٨] - سركيس ، مدخل إلى الأدب الجاهلي ،ص١٨٩-١٩٠

[٣٩] - آبادي ، الجمال اللوني في الشعر العربي من خلال التنوع الدلالي ، ص٩١.

[٤٠] - سلامة ، شرح ديوان عنترة بن الشداد ، ص١٥٤.

[٤١] - سعد ، الموت في اشعار اغربة العرب ، ص١٣٤.

[٤٢] - ابو نبيه ، مشكلة الحرية في الشعر الجاهلي ، ص٨٧.

[٤٣] - ابو العون ، اللون وابعاده في الشعر الجاهلي ، ص١١٣.

[٤٤] - حسني عبد الجليل ، الادب الجاهلي ، ص١٤٣

[٤٥] - سلامة ، شرح ديوان عنترة بن الشداد ،

[٤٦]- جنيدي ، خفاف بن ندبة بن حياته وشعره ، ص٧

[٤٧]- القيسي ، شعر خفاف بن ندبة السلمي ، ص٨

[٤٨] - المرجع السابق ، ص ١٠٨

[٤٩] - البغدادي ، خزانة الادب ، ج٦ ، ص٤٤٤ .

[٥٠]- عنتر ، تجليات اللون عند الاغربة الجاهليين ، ص٨٩.

[٥١] - سلامة ، شرح ديوان عنترة بن الشداد ، ص١٧٥- ١٧٦.

[٥٢] - حرب ، ديوان الشنفرى ويليه ديوانا السليك بن السلكة وعمرو بن براق ، ص٨٧.

[٥٣] - كاظم ، صورة الاخر في شعر الشعراء السود ، ص٣١

[٥٤] - الزبير بن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ص٢٠٧

[٥٥] - السمعاني ، تفسير السمعاني ، ج٥ ، ص٣٣١ .

[٥٦] - ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج٤ ، ٣٦ .

[٥٧] - الاغتراب في شعر أبي علاء المعري ،ص٢٢

[٥٨] - الالوسي ، تفسير الالوسي ، ج١٦ ، ص٤٠ ١ .

[٥٩] - عبد بدوي ، الشعراءالسود، ص٩

[٦٠] - كاظم ، صورة الاحر في شعر الشعراء السود ، ص٣٧

[٦١] - عبده بدوي ، الشعراء السود ، ص٥

[٦٢] -ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج٢٢ .

[٦٣] - علبي ، ثورة العبيد في الاسلام ، ص١٧٦